مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(تيطس ٣: ٨–١٥)

يا ولدي تيطُسُ صادقةٌ هي الكلمةُ وإيّاها أريدُ أن تقرِّرَ حتى يهتمَّ الذين آمنوا باللهِ في القيامِ بالأعمالِ الحسنةِ. فهذه هي الأعمالُ الحسنةُ والنافعة* أمَّا المباحثاتُ الهذيانيَّةُ والأنسابُ والخصوماتُ والمماحكاتُ الناموسيَّة فاجتَنِبْها. فإنَّها غيرُ نافعةٍ وباطِلةٌ* ورَجُلُ البِدعةِ بعدَ الإنذارِ مرَّةً وأُخرى أعرِضْ عنهُ* عالِماً أنَّ مَن هو كذلك قد اعتَسَفَ وهو في الخطيئةِ يقضي بنفسه على نفسه* ومتى أرسلتُ إليكَ أرتِماسَ أو تيخيكوسَ فبادِرْ أن تأتيَني إلى نيكوبولِسَ لأني قد عزمتُ أن أُشتِّيَ هناك* أمَّا زيناسُ معلِّمُ الناموسِ وأبُلُّوسُ فاجتهِدْ في تشييعهما متأهّبين لئلاَّ يُعوِزُهما شيءٌ* وليتعلَّمْ ذوونا أن يقوموا بالأعمالِ الصالحةِ للحاجاتِ

حرب الأيقونات والمجمع المسكوني السابع

يحار المؤرّخون في الأسباب التي حدت عدداً من الأباطرة البيزنطيين على محاربة الأيقونات ومكرّميها. فالثابت أنّ إكرام الأيقونات، في إطار الإمبراطورية الرومانية الشرقية، كان معروفاً قبل القرن الثامن، زمن اندلاع ما يُعرف بـ«حرب الأيقونات». فالفسيفساء التي تصوّر السيّد ووالدة الإله كانت تزيّن الكنائس الكبرى التي أقامها الإمبراطور جوستنيان (٥٢٧–٥٦٥) في القرن السادس. ويُروى عن بطريرك القسطنطينية سرجيوس أنّه، في العام ٥٢٦، دار بأيقونة والدة الإله على أسوار القسطنطينية، وذلك حين حاصر الفرس المدينة محاولين إخضاعها. وفيما كان الدارسون في العقود الماضية يجنحون إلى القول بأنّ الأباطرة محاربي الأيقونات كانوا متأثرين بالإسلام الذي يمنع، على وجه العموم، تصوير الأنبياء، يرى اليوم معظم المؤرّخين أنّه ليس ثمة قرائن تشير إلى تأثّر أعداء الأيقونات بالإسلام . فالمسلمون ، في القرن الثامن، كانوا أعداء الإمبراطورية البيزنطية. وقد رصدوا أسطولاً كبيراً لمحاصرة القسطنطينية في العام ٧١٧. لذا، يصعب تفسير تأثّر الأباطرة البيزنطيين بالإسلام، فيما لو كانت هذه الفرضيّة صحيحة. ولا يُستبعد أن يكون ردّ فعل الأباطرة على ما كانت تحظى به الأيقونات من إكرام، لا يخلو من مغالاة أحياناً في بعض أوساط الشعب، مردّه الهزائم المتلاحقة التي أصابت الإمبراطورية البيزنطية على يد الفرس، ثم على يد العرب، وانتهت بخروج بلاد فارس وسورية ومصر وشمال إفريقيا عن سيطرة بيزنطية. إذ ليس من المستغرب أن يعتبر محاربو الأيقونات أنّ هذه الهزائم كلّها عقاب ألحقه الله بالمملكة، وذلك بسبب انصراف الشعب فيها إلى التعبّد للصور الخشبيّة والإعراض عنه.

العدد ٢٠٠٧/٤٢
الأحد ١٤ تشرين الأول
تذكار القديسين الشهداء نازاريوس وجرفاسيوس وبروطاسيوس وكليوس وأبينا البار قزما القدسي المنشئ أسقف مايومة
اللحن الثالث

الأكيد أنّ الحملة التي شُنَّت على الأيقونات، بدءاً بالعام ٧٢٦ على وجه التقدير، والتي انتهت مرحلتها الأولى بالمجمع المسكوني السابع في العام ٧٨٧، خلقت توتراً بين الطبقة العليا في القسطنطينية، من جهة، وكان المنتمون إليها من دعاة نبذ

الضروريَّة حتى لا يكونوا غيرَ مثمرين* يسلِّمُ عليكَ جميعُ الذين معي* سلِّمْ على الذين يُحبُّونن ا في الإيمان. النعمةُ معكم أجمعين. آمين.

الإنجيل

(متى ٥:١٤-١٩)

قال الربُّ لتلاميذهِ أنتم نورُ العالم. لا يمكنُ أن تَخْفى مدينةٌ واقعةٌ على جبل* ولا يُوقَد سِراجٌ ويُوضعُ تحتَ المكيال لكنْ على المنارة ليُضيءَ لجميع الذين في البيت* هكذا فليُضئْ نورُكم قدَّامَ الناس ليرَوْا أعمالَكم الصالحة ويُمجّدوا أباكم الذي في السموات. لا تظُنُّوا أنّي أتيتُ لأحُلَّ الناموسَ والأنبياءَ، إنّي لم آتِ لأحُلَّ لكن لأُتمّم* الحقَّ أقول لكم إنّهُ إلى أن تزولَ السماءُ والأرضُ لا يزولُ حرفٌ واحدٌ أو نقطةٌ واحِدةٌ من الناموس حتَّى يتمَّ الكلُّ* فكلُّ مَن يَحُلُّ واحدةً من هذه الوصايا الصغار ويُعَلِّمُ الناس هكذا، فإنَّه يُدعى صغيراً في ملكوتِ السموات. وأمَّا الذي يعملُ ويُعلِّمُ فهذا يُدعى عظيماً في ملكوت السموات.

الأيقونات، وبين الرهبان، من جهة أخرى، وقد تولّى هؤلاء الدفاع عن الأيقونات ومناصرتها. طبعاً، من الصعب الجزم بمدى توسّع العداء للأيقونات خارج حدود العاصمة الملكيّة ومحيطها. فالأرجح أنّ الإجراءات التي لجأ إليها الأباطرة، بدءاً بالإمبراطور ليون الثالث (٧١٧-٧٤١)، تركزت على القسطنطينية، وكانت تقضي بإخراج الأيقونات من الكنائس، ولا سيّما إذا غالى الشعب في التعبّد لها. وقد اتّخذ العداء للأيقونات منحًى لاهوتياً واضحاً في عهد الإمبراطور قسطنطين الخامس (٧٤١-٧٧٥)، إذ عمد إلى عقد المجمع المعروف بـ «مجمع هيريا» (Hiereia)، الذي حكم على الأيقونات وشتم القديس يوحنا الدمشقي، أحد أبرز المدافعين عنها.

والحقّ أنّ القديس الدمشقي (حوالى ٦٥٠-حوالى ٧٥٠)، الذي عاش بين دمشق وفلسطين، أي خارج حدود الإمبراطوريّة البيزنطيّة، يُعتبر بحقّ أهم من انتصر للأيقونات في القرن الثامن، مفنّداً آراء محاربيها ومبيّناً القاعدة اللاهوتيّة التي يستند إليها إكرام الصور المقدّسة. وضع القديس يوحنا الدمشقي ثلاثة كتب في الدفاع عن إكرام الأيقونات، وقد ارتكز في دفاعه عن الصور المقدّسة على عقيدة التجسّد الإلهيّ، التي كانت المجامع المسكونية الستة الأولى، ولاسيّما المجمع الرابع (٤٥١)، قد وضعت مداميكها. فعند القديس يوحنا الأيقونة ممكن رسمها ومن المسموح لاهوتيّاً اللجوء إلى التصوير لأنّ الكلمة الإلهيّ، غير المنظور أصلاً، أصبح، عبر تجسّده، مرئيًّا، وتاليًا قابلاً للتصوير: «أنا لا أعبد المادة، بل أعبد خالق المادة الذي قَبِل أن يسكن في المادة وصنع بواسطة المادة خلاصي». والملاحظ أن القديس الدمشقي لا ينحصر في إيضاح الأساس اللاهوتي الذي يقوم عليه تصوير السيد له المجد ووالدته وقدّيسيه، بل يسعى أيضًا إلى تصحيح المغالاة التي قد يقع فيها بعض المتحمّسين للأيقونات، إذ يميّز بين «الإكرام» و«العبادة». فالعبادة لا تليق إلا بالله وحده، أما ما يقوم به المؤمنون أمام الأيقونة من سجود وتقبيل فهو سجود إكراميّ لا يتّخذ كامل معناه إلا لأن المؤمنين يعبدون من تصوّره الأيقونة، أي الكلمة المتجسد. بهذا المعنى، الإكرام لا يتوجّه إلى المادة الخشبية، بل يطاول الشخص المرسوم في الأيقونة. فإذا كانت الأيقونة تصوّر والدة الإله أو واحدًا من القديسين، يصحّ الاعتبار أن إكرامها ممكن، لأن هؤلاء باتوا متّحدين بالسيد الذي به وحده تليق العبادة، وهم أعضاء في جسده.

يعود الفضل إلى عقد المجمع المسكوني السابع (٧٨٧)، الذي كرّس إكرام الأيقونات، إلى الإمبراطورة إيريني التي تولّت زمام الحكم بالنيابة عن ابنها القاصر، الإمبراطور قسطنطين السادس. وقد كانت إيريني من المتحمّسات لإكرام الأيقونات. فسارعت، بعد تولّيها الحكم، إلى عقد المجمع الذي عمد إلى ردّ الاعتبار للصور المقدسة ناقضًا، بذلك، أحكام مجمع هيريا الهرطوقيّ. واللافت أن المجمع المسكوني استنجد، في انتصاره للصور المقدسة، بما كان القديس يوحنا الدمشقي قد وضعه في الدفاع عن الأيقونات، ما يجعل تعليم هذا المجمع متأثّرًا، إلى حدٍّ بعيد، بأفكار القديس الدمشقي، رغم أنه لا يُذكر في أعمال المجمع إلا لمامًا. والحق أن اللجوء إلى تعليم يوحنا الدمشقي يجعل من كلام المجمع السابع عن الأيقونات امتدادًا لعقيدة التجسد الإلهيّ وتطبيقًا لها على مستوى الليتورجيا والحياة الروحية الشخصية. فالعقيدة التي

تأمل

إذا كان الشرط في دخولنا الملكوت أن يزيد برُّنا على الكتَبة والفريسيين وأن نُعلِّم الناس بالأقوال والأعمال وأن نكون محبّين لإخوتنا، وادّين لأعدائنا، مسارعين إلى طلب الصلح والسلام، مزيّنين ذواتنا بالكمال، فكيف نكون هكذا كسالى متهاونين ونحن نعلم انه ينبغي لنا ويجب علينا أن نكون عاملين معلّمين محبّين لإخوتنا مترجحين في الفضيلة على غيرنا مجاهدين في تحصيل الكمال المسيحي. ونعلم ان لنا مع ذلك أعداء يلتمسون قهرنا ويجتهدون في سقوطنا. فلننبِّه عقولنا من غفلة الكسل ونصرف أنفسنا عن الانهماك بالشهوات البدنيَّة لئلاَّ يجد عدوُّنا سبيلاً إلى قهرنا.

وإذا كان عدوُّنا لا ينام والمبغض لجنسنا لا يغفل فلماذا لا نهيّئ أسلحتنا ونشيِّد أسوار مدينتنا ونقيم عليها الحرَّاس والطلائع والمجاهدين لئلاَّ ينقضّ علينا العدو بغتةً ونحن في غفلة إهمالنا فيجعلنا ضحكةً للناظرين وعاراً أمام المجاهدين. لأن أولئك يأخذون إكليل المجد ويفوزون بالخلود في النعيم. ونحن نُطرَد بجريرة تهاوننا. وإذا كانت الكلمات الرديَّة تفسد الضمائر السليمة كما قال الرسول فينبغي لنا أن نهرب دائماً من معاشرة

أتى بها المجمع، في ما يخصّ الصور المقدسة، ليست تعليمًا لاهوتيًا قائمًا في ذاته، بل هي تنبع من سرّ التجسد الإلهيّ. وهي، تاليًا، لا تتناقض وما أتى في وصية العهد القديم أن «لا تتّخذ لك منحوتًا وتعبده». فما يقوم به المؤمن أمام الأيقونة ليس عبادة، بل هو إكرام يستند إلى أن هذا المؤمن لا يعبد إلا الله وحده. وصية العهد القديم كانت ضرورية لتحذير الشعب من مخاطر الوثنية المحيطة به. فالله في العهد القديم يقول عن نفسه إنه إله غيور بمعنى أنه لا يقبل أن ينصرف الشعب عنه إلى عبادة أوثان الشعوب الأخرى التي لا حياة فيها. أما ما يجري في الليتورجيا وفي التقوى الشخصية أمام الأيقونة فلا علاقة له بالوثنية التي يحذّر منها العهد القديم. فالمعبود هنا هو الله نفسه، إله العهد القديم، كما ظهر في صورة ابنه المتجسد، يسوع المسيح، الذي بقي، رغم تجسده، متّحدًا بأبيه. هذا يعني أن آباء المجمع المسكوني السابع، بحذوهم حذو القديس يوحنا الدمشقي وتثبيتهم دعائم الأيقونة على سرّ التجسد، كانوا على وعي أنهم لا يأتون بتعليم مغاير لما جاء في المجامع الأخرى عن أقانيم الثالوث، بل يمدّون هذا التعليم ليشمل ظاهرة لا تزال تميّز الكنيسة الأرثوذكسية إلى اليوم، أي الأيقونة.

شهود يهوه وإكرام الأيقونات

في إطار إنكارهم لحقيقة التجسّد الإلهي، حقيقة ان الإله صار إنساناً، يمضي شهود يهوه في ضلالهم ويمنعون رسم الأيقونات وتعليقها في منازل المؤمنين والكنائس، وذلك بحجة ان الكتاب المقدّس يمنع رسم الأيقونات أو عمل التماثيل على ما ورد في الوصية الثانية من الوصايا العشر: «لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورةً مَا ممَّا في السماءِ من فوق وما في الأرض من تحت وما في الماءِ من تحتِ الأرض» (خر ٢٠:٤ وتث ٥:٨). كما يمضي شهود يهوه في غيِّهم ويتهمون المؤمنين بعبادة الأيقونة، في حين ان الكنيسة منذ نشأتها لم تقل أبداً بعبادة الأيقونة إنما بإكرام الأيقونة ومن خلالها إكرام القديس المرسوم عليها. كذلك نحن نسجد لأيقونة السيّد سجوداً إكرامياً ونعبد الرب المرسوم عليها وليس الخشب والألوان. ان شهود يهوه يحاولون إلصاق تهمة بنا في أمر لم تدّعيه الكنيسة على الإطلاق.

بالعودة إلى موضوع رسم الأيقونات، نقرأ في سِفر الخروج أيضاً وبعد إصحاحات قليلة حيث وردت الوصايا العشر، نقرأ عن التعليمات التي أعطاها الرب لموسى حول بناء خيمة الإجتماع، وتحديداً حول تابوت العهد الذي وُضع فيه لوحا الوصايا العشر. يقول الله لموسى: «وتصنعُ غطاءً (للتابوت) من ذهبٍ نقيٍّ طوله ذراعان ونصفٌ وعرضُه ذراعٌ ونصفٌ، **وتصنعُ كروبَين** من ذهبٍ. صنعةَ خِراطةٍ تصنعهما على طَرَفَي الغِطاءِ فاصنع كروباً واحداً على الطرفِ من هنا، وكروباً آخر على الطرف من هناك، من الغطاء تصنعون الكروبين على طرَفيه. ويكونُ الكروبانِ باسطَين أجنحتهما إلى فوقُ مُظللين بأجنحتهما على الغطاءِ ووجهاهما كلٌّ واحدٍ إلى الآخر. نحوَ الغِطاءِ يكونُ وجها الكروبين» (خر ٢٥:١٧–٢٠). في هذه الإرشادات، يوصي الله موسى أن يصنع تمثالين للكروبين (رتبة من رتب الملائكة)، وهذا ما لا يتفق مع الوصية السابقة حيث حرَّم الله رسم الصور وإقامة التماثيل. هل الله يناقض نفسه؟ حاشى. والجواب هو في فهم الوصية الثانية والدافع لها.

الأشرار والسكيرين والمستهزئين وأمثالهم لأن الاختلاط بهم واستماع كلامهم على الدوام يجذب الأخيار السليمي القلوب إلى التخلق بأخلاقهم. وكما ان الذين يجالسون العطّارين وباعة المسك والطيوب العَبِقة يكتسبون الروائح الذكيَّة ينبغي لنا نحن أيضاً أن نلازم الحكماء والمعلمين وأرباب الفضيلة لنقتدي بمثالهم في الصالحات. ويا للعجب من كون الفضيلة حسنة عند جميع الناس والرذيلة قبيحةً حتى عند الذين يفعلونها أيضاً. فإنك ترى السكّير مثلاً إذا رأى رجلاً سكران يستهزئُ به ويضحك عليه ويستنقص عقله. فانظر إلى فاعل الرذيلة كيف يستقبحها مع ممارسته لها. لأن الله وضع في طبائع البشر حاكماً عادلاً لا ينظر إلى الوجوه ولا يأخذ الرشى وهو العقل الفاصل بين الفضيلة والرذيلة ليبيِّن جمال هذه وقباحة تلك فيكون الإنسان بلا عذر ولا حجَّة عند المداينة في اليوم الأخير. وإذا كان ربنا له المجد قد وضع قانوناً سهلاً يسيراً لخلاصنا وهو أن نحسن إلى المسيء ونصفح عن المخطئ وهو تعالى يصفح عن زلاتنا فماذا يكون عذرنا إذا لم نعمل بمثل ذلك؟

القديس يوحنا الذهبي الفم

لقد أوضحنا في الأعداد السابقة ان الله في العهد القديم لم يظهر لناس بالجسد، بل كان يظهر لهم، وهم يتعرفوا عليه، من خلال أقواله وأعماله وقيادته لمسيرة شعبه المختار إلى أرض الميعاد. وأبرز حدث تعرّف فيه الشعب على الله كان حدث الخروج من مصر وعبور البحر الأحمر. لذلك كانت الوصية الأولى من الوصايا العشر هي: «أنا الربُّ إلهُكَ الذي أخرجك من أرض مِصرَ من بيتِ العبوديَّة، **لا يكن لك آلهةٌ أخرى أمامي**» (خر ٢٠: ٢–٣، تث ٥:٦–٧). لقد عرّف الرب عن نفسه من خلال الحدث الخلاصي الذي قام به. ولأن الإنسان عبد أهوائه ورغباته، وقد يمضي وراء آلهة وثنية أخرى، لذلك خوفاً من الوقوع في العبادة الوثنية قال له «لا يكن لك آلهة أخرى أمامي». ثم ألحقه بالوصية الثانية التي تقول: «لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورةً ما ممَّا في السماءِ من فوق وما في الأرض من تحت وما في الماءِ من تحتِ الأرض. لا تسجد لهنَّ ولا تعبدهنَّ لأنّي أنا الربَّ إلهكَ إلهٌ غيورٌ» (خر ٢٠:٤–٥ وتث ٥: ٨–٩). هناك أمران يجب توضيحهما في هذه الوصية. أولاً: ان شهود يهوه يخفون عمداً الجزء الثاني منها فيقولون ان الله حرّم الصور والتماثيل ولا يتابعون الوصية حيث القول: «لا تسجد لهنَّ ولا تعبدهنَّ». إذاً هم يبترون الآية ويستعملون نصفها بقصد التضليل. ثانياً: واضح من الوصية ان سبب المنع هو لكي لا يسجد الشعب للتماثيل ويعبدوها ويضعوها مكان **الله الذي أخرجهم من أرض مصر، أرض العبودية**. هذا خطر حقيقي وواقعي لأن الله عالم ان الإنسان قد يسير وراء رغباته وأهوائه ويبتعد عنه ويقيم آلهة مكانه. قلنا انه خطر حقيقي وواقعي بدليل ما حدث بعد الخروج من مصر وأثناء وجود موسى على الجبل أربعين يوماً ليستلم الوصايا من الله.

يقول الكتاب: «ولمَّا رأى الشعبُ أنَّ موسى أبطأ في النزولِ من الجبلِ اجتمعَ الشعبُ على هرونَ وقالوا لهُ **قُم اصنع لنا آلهةً تسيرُ أمامنا**، لأنَّ هذا موسى الرجلَ الذي أصعدنا من أرضِ مصرَ لا نعلمُ ماذا أصابه. فقال لهم هرونُ انزعوا أقراطَ الذهبِ التي في آذانِ نسائِكم وبنيكم وبناتِكم واتوني بها. فنزعَ كلُّ الشعبِ أقراطَ الذهبِ التي في آذانِهم وأتوا بها إلى هرون. فأخذ ذلك من أيديهم وصوَّرهُ بالإزميلِ وصنعه عِجلاً مسبوكاً. فقالوا **هذه آلهَتُك يا إسرائيلُ التي أصعدتك من أرضِ مصرَ**. فلمَّا نظرَ هرونُ بنى مذبحاً أمامه. ونادى هرون وقال **غداً عيدٌ للربِّ**. فبكَّروا في الغدِ وأصعَدوا مُحرَقاتٍ وقدَّموا ذبائحَ سلامةٍ» (خر ٣٢:١–٦). لقد اعتبروا تمثال العجل المذهب هو الإله الذي أخرجهم من أرض مصر. لقد خطئوا إذ خالفوا الوصيَّة الأولى «لا يكن لك آلهة أخرى أمامي»، واستبدلوا إلههم، الله، بالآلهة الوثنية وقالوا انها هي التي أخرجتهم من أرض العبودية، مصر، وسجدوا لها مقدّمين الذبائح.

إذاً، سبب المنع هو الخطر الكامن في السجود للتماثيل والصور وعبادتها، تماماً كما فعل الشعب في العهد القديم. وهذا ما لا ينطبق على مفهوم الأيقونة في الكنيسة. نكتفي بالقول ان مَنْ يتهمنا بعبادة الأيقونة يجهل حقيقة إيماننا. نحن نكرِّم الأيقونة ونعبد الرب الذي صُوِّر عليها، ونكرِّم القديسين المرسومين عليها، ولا نسجد للخشب والألوان. ومَنْ يعتقد عكس ذلك فهو جاهل لإيماننا.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb